نظرية التفوق العرقي عند المستشرقين

الدكتور: مصطفى حميداتو
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة الحاج لخضر. باتنة

المقدمـــة: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له[1].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له "خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين"[2].

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، بعثه الله رحمة للعالمين وإماما للمتقين وحجة على الخلائق أجمعين، هاديا إلى أقوم الطرق، وأوضح السبل، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد:

فإن العلم لم يكن في وقت من الأوقات حكرا على شعب دون غيره أو أمة دون سواها قال تعالى: ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ [3].

إن لكل أمة دورا تقوم به في إثراء التراث الفكري الإنساني في حقبة من حقب التاريخ بقدر ما تمتلك من إمكانات فكرية ومادية، ثم إن العلم تراث للإنسانية يستحقه على السواء جميع أفرادها المجتهدين، تلك سنة الله في عباده. أما أن تحتكر العلم أمة دون غيرها، فهذا ما لم يصدقه تاريخ البشرية، قال الله تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [4]. وقال تعالى: ﴿ واذكروا

إذ جعلكم خلائف من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [5].

وقال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ [6].

وقال تعالى: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ [7].

وقبل الخوض في تفاصيل تأثير نظرية التفوق العرقي عند المستشرقين نلقي الضوء أولا على مفهوم الاستشراق ثم نعرج على تطور فكرة التفوق العرقي عند الغربيين.

ــ **الاستشراق:**أطلق مصطلح الاستشراق على الدراسات التي يقوم بها الباحثون الغربيون حول ديانات وحضارات الشرق ، غير أن الإسلام ــ تاريخه وحضارته ــ كان الوجهة الرئيسية لهذه الدراسات ،

مع ذلك فهذا المصطلح لا يمكن حصره في ما يقوم به الغربيون في هذا المجال ، وذلك لمشاركة الكثير من نصارى العرب في هذا النشاط منذ القرن الثاني الهجري وإلى يوم الناس هذا ،

وعليه فالأولى أن يقال: إن الاستشراق هو دراسة الحضارة ومواضيع الثقافة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى ولهم بناء شعوري مخالف لبناء الحضارة التي يدرسونها.

تطور فكرة التفوق العرقي عند الغربيين:

إن فكرة التفوق العرقي لدى الغربيين، غريزة موروثة عن المدنية اليونانية القديمة، زادتها الأجيال المتعاقبة تمكنا في النفوس.

فالغرب يرى نفسه ممثلا للإنسانية جمعاء، و أوروبا مركز الثقافة فيه، والثقافة الغربية هي المشكاة التي تقتبس منها جميع الثقافات وبالتالي انكساف التاريخ الحضاري للأمم غير الأوروبية.

وقد برز هذا الاتجاه عند الغربيين منذ أفلاطون[8] ... إلى منتسكيو[9] وفيكتور كوسن[10] ثم أرنست رينان[11] وبرتراند روسل[12] وغيرهم.

وقد أخذت هذه الفكرة صوراً وأشكالا مختلفة حسبما تمليه الظروف والأوضاع، وحسب حال المستشرق الفكرية من التطرف والاعتدال. فهي عند قدماء اليونان، تفوقا مطلقا للعرق اليوناني على غيره، كأنما خلقه الله ليكون سيّد الأجناس، وهو ما ذهب إليه أفلاطون في جمهوريته، ونحا نحوه وولترسنيس في كتابه تاريخ الفلسفة اليونانية.

وأرجعها آخرون إلى كون سكان الشمال أقوى وأذكى وأقدر على العطاء من سكان الجنوب، وهم بذلك يرون أن أوروبا وحدها هي الشمال وغيرها هو الجنوب، وهو رأي منتسكيو ومن وافقه.

وذهب أرنست رينان ومن أخذ بنظريته إلى التفريق بين الساميين والاريين، وحشدوا لذلك أدلة غثة لا تسمن ولا تغني من جوع. وفرّق آخرون بين سكان المناطق الباردة وسكان المناطق الحارة، مثلما فعل غوستوف لوبون في مقدمة المحاضرة.

هذه بعض الصور التي أعطاها علماء الغرب لفكرة التفوق العرقي وبرهنوا من خلالها على مركزية الثقافة الأوروبية وأنها هي النهر الخالد الذي تغرف منه البشرية على مر القرون، وما عداها من ثقافات فهوامش وأجزاء غير أصيلة، لا تعدو أن تكون أفكارا غير ناضجة، لم تترك بصماتها في تاريخ البشرية، أو أنها مستقاة أصلا من الفكر الغربي.

وسأحاول في هذا الفصل عرض بعض هذه الأفكار ومناقشتها وابراز الغاية المشتركة التي يصبوا إليها أصحابها.

أ ـ تفوق العرق اليوناني عند أفلاطون:

يمهد الفيلسوف اليوناني أفلاطون في جمهوريته لهذه النزعة بقوله: "... أليس من الدقة أيضا أن نقول أن الشعوب اليونانية تجمعها رابطة القرابة ووحدة الأصل، وتختلف عن البرابرة في الجنس والدم ؟ هذا صحيح!! فإن

قاتل اليونانيون البرابرة، أو البرابرة اليونانيين، فعندئذ نقول: إن بين الفريقين حربا وأنهما بطبيعتهما أعداء.. ولكن ألن تكون الدولة التي نريد تشييدها، دولة يونانية ؟ هذا ضروري[13].

فالدولة المثالية التي يحلم بها وينظّر لها كبير فلاسفة اليونان أفلاطون، لا يمكن أن يرسي دعائمها ويقيم بناءها إلا العرق اليوناني دون غيره. فهو العرق المثالي الذي يمكنه قيادة الدول وتأسيس المدنيات.

إن هذه النظرة العنصرية المتعصبة لا تقوم على أي أساس علمي سوى الإعجاب بالجنس اليوناني وانتقاص غيره، رغم أن أفلاطون نفسه يدرك مدى التقدم العلمي الذي وصلته الشعوب الشرقية المجاورة لهـم، بل ويعلم أن سلفيه طالس Thales(640ق م ــ 546ق م) وفيثاغورس Pythagoras (580 ق م ــ 500ق م) وعصريّه ديمقريطس Democritus (460ق م ــ 370ق م). قد أمّوا مصر ونهلوا من علومها وتتلمذوا على علمائها، ومكث فيثاغورس بها نحو اثنين وعشرين عاما[14].

أليس هذا كافيا للقول بأن هناك شعوبا أخرى غير يونانية قادرة على العطاء والابتكار، وتشييد مدنيات في غير بلاد اليونان ؟

إن النظرة العنصرية التي ينطلق منها الرجل الغربي، والتي يجد لها سندا من أقوال فلاسفته، أدت به في كثير من الأحيان إلى التطرف والاستبداد.

ويصف المفكر إدوارد دي بونو (Edward de Bono) هذا النوع من التفكير الغربي بأنه فاشي للغاية في مبرراته الأخلاقية[15].

ولما كانت اليونان الجغرافية ليست هي كل أوروبا، والشعب اليوناني لا يمثل الشعوب الأوروبية الأخرى، وحتى ينطلي هذا التفوق الذي ذكره أفلاطون على كل الشعوب الأوروبية، انبرى بعض المستشرقين ليثبتوا أن اليونانيين انتشروا في كثير من البلاد الأوروبية ومعهم انتشر الذكاء والتفوق.

فهذا وولتر سنيس يقول: "وعندما نتحدث عن فلسفة اليونان، لا يجب أن نفترض أننا نشير إلى الأرض الأم التي نسميها الآن اليونان، ففي العصور القديمة للتاريخ هاجر يونانيو الأرض الأم إلى جزر بحر إيجة وصقلية وجنوب إيطاليا، وساحل آسيا الصغرى وفي أماكن أخرى، وأسسوا مستعمرات مزدهرة. وتشمل يونان الفلسفة كل هذه الأماكن، ولهذا يجب البحث عنها عرقيا أكثر من البحث عنها أرضيا أو جغرافيا، فهي فلسفة قوم للعرق اليوناني أينما كان مستقره". ويختم وولتر كلامه قائلا " فالطابع الكلي للفلسفة اليونانية أوروبي وغير شرقي حتى النخاع"[16].

ورحم الله الفيلسوف المسلم أبا الوليد ابن رشد الذي يضع الأمور في نصابها حين يقرر "بأن ليس (هناك) صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة"[17]، وسوف يبدو دائما للعقل الغربي أنه من المهانة أن تدين أوروبا للشرق بشيء مع أن للشرق عليها أفضالا متأصلة في مدنيتها متغلغلة في حياتها[18].

ولما ظهر الدين المسيحي في الشرق ثم انتقل منه إلى الغرب، امتزجت هذه النظرة بطابع ديني غير حاد، وذلك لانشغال علماء المسيحية بالتأصيل لعقيدتهم المحرفة، التي استقوها من الوثنية خاصة فيما يتعلق بالتثليث، وألوهية المسيح (عليه السلام) وغيرها، حيث أقبل بولس (شاؤول) على التوفيق بين تعاليم المسيح (عليه السلام) وبين المعتقدات الوثنية السائدة في زمنه، حتى يجعل المسيحية أكثر قبولا عند الوثنيين.

لقد استفحل الجدال حول العقيدة المسيحية وتفاقم، مما استدعى تدخل الأمبراطور قسطنطين، ودعوته لعقد أول مجمع مسكوني في تاريخ الكنيسة سنة 325م في مدينة نيقية في آسيا الصغرى وذلك للبت في عقيدة التثليث، ثم تأكيدها في مجمع خلقيدونيا المسكوني سنة451 للميلاد.

إذن فالعقل الغربي كان خلال هذه القرون في شغل عن إظهار تميّزه وتفوقه، بعدما وجد نفسه غريقا في وحل العقائد الوثنية.

وعند بزوغ نور الإسلام في جزيرة العرب، وانتشاره شرقا وغربا وانهيار الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية، انبهر الغرب بالازدهار الذي حققه الدين الجديد، وما لبث أن تحول هذا الانبهار إلى حقد وتعصب ضد الإسلام بلغ ذروته بانطلاق الحروب الصليبية سنة 1095م والتي استمرت أكثر من قرنين.

إن موقف أوروبا والغرب من الإسلام منذ نزول الوحي المحمدي كان موقفاً عدائياً.

ب ـ تفوق سكان الشمال عند منتسكيو:

بعد فشل الحروب الصليبية، واتجاه علماء الغرب إلى دراسة الإسلام واللغة العرب لاكتشاف أفضل الطرق للكيد للإسلام وأهله وتجريدهم من أسلحتهم وإحباط معنوياتهم، أظهر الغرب نبرته الجديدة المتسمة بالتحدي، والتي مثلتها جحافل المستشرقين والمبشرين الذين أكبوا على دراسة القرآن والسنة النبوية، من أجل الإحاطة بهما لمقارعة المسلمين، بسلاحهم.

وقد تجددت نظرة الاستعلاء والتفوق عند الرجل الغربي في بداية عصر النهضة، خاصة بعد سقوط أقاليم الأندلس في أيدي النصارى، وأسدل الستار عن ثمانية قرون من الحكم الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

فهذا الفيلسوف والكاتب السياسي الفرنسي" منتسكيو Montesquieu (1689 ــ 1755م) يبرر نظرة التفوق العرقي ويحاول طلاءها بصبغة علمية وإن كانت أوهن من بيت العنكبوت.

يقول منتسكيو: "تجد في الأقاليم الشمالية شعوبا قليلة المعايب كثيرة الإخلاص والصراحة، فإذا اقتربت من الجنوب خيل إليك أنك بمعزل عن القانون الأدبي الأخلاقي، فرأيت الشهوات الشديدة وكيف تفعل في زيادة الجرائم ... أما في البلاد المعتدلة فإنك تجد الشعوب غير مستقرة على شأن من شؤونها، لا فرق في ذلك بين المساوي والمحاسن، لأن المناخ هناك

ليست له صفة محددة تحديدا تاما تقر الأهلين على حال"[19]. انتهى كلام منتسكيو.

ويبدو أن هذا الفيلسوف يصف الحال السائدة في عصره، عصر النهضة الأوروبية، عصر انحطاط الشرق، الذي بدأ فيه النفوذ الاستعماري يطال أغلب البلاد الإسلامية.

أما إذا كان المسيو منتسكيو يريد لنظريته أن تكون قاعدة ثابتة وحقيقة علمية فهذا ما لا تصدقه الحقائق التاريخية.

ففرنسا بلد منتسكيو كانت قبيل الحروب الصليبية، تشكوا تضخما في السكان، وكانت المجاعات والطواعين متواترة مألوفة[20].

ويكشف روم لاندو عن التعصب والتطرف اللذين تمثلهما الغرب (سكان الأقاليم الشمالية وأصحاب المعايب القليلة) بقوله:

وفي سنة 1099 بعد حصار للمدينة دام شهرين اثنين اقتحم النصارى بيت المقدس بمثل ابتهاج المنتصرين المتعصبين المتوقد وأعملوا السيف في رقاب المسلمين من غير ما تمييز، رجالاً ونساءً وأطفالاً سواء أكانوا في بيوتهم أو في المساجد، وواصل النصارى وهم يبكون فرحا مجزرتهم حتى أخليت المدينة مع جميع سكانها المسلمين واليهود. ومثل هذا الإفناء البشري باسم المسيح، كان لا بد له أن يذهل الناس، ولقد عجزت القرون المتتالية عن محو هذه الوصمة[21].

أليست هذه الأعمال التي (قام بها الرجل الأبيض من سكان الشمال أصحاب المعايب القليلة) هي الخروج الحقيقي عن القانون الأدبي والأخلاقي

إن الأمثلة على خطأ مقولة الميسو مونتسكيو كثيرة جداً، نذكر منها محاكم التفتيش التي لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلا، وأما ما فعله الفرنسيون في الجزائر من جرائم فما زالت المقابر الجماعية لآلاف المسلمين تكتشف إلى يوم الناس هذا.

وقد كانت النظرة العنصرية (Racialism) الاستعلائية (Superiotity) السبب البعيد وراء معاناة الإنسانية بصورتها الأليمة البشعة حتى اليوم، لكن الأوروبي وهو يعرض انتصاراته (في عصر النهضة) يحلو له تبني كل ما هو جميل، وادعاء كل ما هو خير، وتقديم الغرب (الشمال) كأصل لكل المحاسن، وهو الشريان المتدفق بالحياة الذي تتغذى منه جميع الفروع في (الشرق أو الجنوب).

جـ ــ التمييز بين الشرقيين:

بعد التوسع الاستعماري الغربي في الشرق، عني الاستشراق بدراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وتقاليده ولغاته، إلا أن العناية بدراسة الإسلام وحضارته، واللغة العربية وآدابها، كانت مادته الرئيسة حتى اليوم، ذلك أن المستشرقين ورجال الدين الغربيين يعدونه الخصم والعدو اللدود للمسيحية. وعليه تركزت جهودهم حول تشويه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم. وإذا كانت ثمة صفحة مشرقة من صفحات هذا الشرق الكبير، أرجعوها الى اليونان، أو نسبوها لغير المسلمين، وإذا كان ولا بد من نسبتها للمسلمين فلتكن لغير العرب. يقول دي بور: De Boer " ولم يكن من اليسير على الشرقيين أن يبحثوا بحثا مستقلا في أمور لم يطرقها أحد قبلهم، لأن الشرقي يرى أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان"[22].

إن كثيرا من المستشرقين ــ أمثال دي بور ــ وفي كثير من الأحيان، عندما لا يجدون ما يدعمون به افتراءاتهم، لا يستحيون في التستر ولو بالخرافات، متناسين، منهج التمحيص والتدقيق الذي طالما ادعوا التمسك به.

وفي موضع آخر وبنفس الأسلوب يقول دي بور: " فإذا وجدنا العرب يصلون بين الأشياء برباط منطقي أو قائم على الاعتبار لخصائص الأشياء لا حين يحصونها إحصاءا، أو يجمعون بينها على غير نظام، فالراجح أنهم في كل ذلك متأثرون باليونان"[23].

ولا ندري كيف غفل دي بور عن الإتيان بالرباط المنطقي والقائم على خصائص الأشياء لترجيحه هذا.

إن الترجيح لا يمكن إسقاطه بهذه الطريقة البدائية، إنما يكون حين تحشد الأدلة وتدرس وتمحص، وتقابل مع بعضها، فإذا تساوت، ولم يمكن تقديم أحدها على الآخر، عندها يمكن الترجيح إذا كان ثمة قرائن تدعم هذا الترجيح.

وهذا المستشرق جون برنت Burnet – J يسير على نهج دي بور ويرجح بنفس طريقته.

يقول " إننا لا يمكن أن نتحدث على فلسفة لدى المصريين أو البابليين، أما الذين يمكن أن تنسب لهم فلسفة من القدماء، فهم الهنود.

ولكننا على الرغم من ذلك لا يمكن أن نرجع الفلسفة اليونانية إلى الهند، بل الأقرب إلى الحقيقة أن نقول أن الفلسفة الهندية هي التي تأثرت بالفلسفة اليونانية"[24]، من غير أن يقدم السيد برنت أي دليل على ما ذهب إليه.

والغريب أن هؤلاء المستشرقين يتناقضون في الأساليب والنظريات المتبعة في معالجة قضايا الثقافة الإسلامية.

فمتى كانت النظرية تسعفهم في رد المحاسن إلى الغرب، أخذوا بها وروجوها. أما إذا كانت تخدم غيرهم ـــ خاصة إذا كان هذا الغير هم المسلمون ـــ فلا يترددون في رفضها.

فنظرية السبق التاريخي، وأخذ اللاحق عن السابق، لا يقرها الغربيون في مثل هذه المواطن، لأنها لا تصب في مصلحة المركزية الأوروبية.

أما عند الكلام عن تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني على حد زعمهم، فإن نظرية السبق التاريخي تكون حجر الأساس والركن الركين في جميع تحليلاتهم، وستكون لنا وقفة حول مسألة السبق التاريخي في فصل قادم إن شاء الله.

د ــ تفوق العرق الآري على العرق السامي عند المستشرقين:

إن التقسيمات اللغوية المعروفة الآن، تمّ وضعها اعتمادا على ما ذكر في الإصحاح العاشر من سفر التكوين وذلك بإرجاع الشعوب التي عمرت الأرض بعد طوفان نوح إلى أولاده الثلاثة: سام ــ وحام، ويافث.

إن كاتب[25] سفر التكوين كان يقسم الشعوب لاعتبارات سياسية، فمن صادقهم اليهود جعلهم من أبناء سام، ومن عاداهم جعلهم من غير الساميين[26].

وهذا التقسيم لا تؤيده الشواهد التارخية حيث لا نجد فيه ذكر لنسل من كان في السفينة من قوم نوح، ولا ذكر لنسل من لم يصبهم الطوفان من غير قوم نوح[27].

وقد جعل المستشرقون من هذا التقسيم ذريعة لتمييز العرق الآري الذي تنتمي إليه الشعوب الأوروبية، وحشد الأدلة لإظهار تفوقه على العرق السامي الذي ينتمي إليه العرب.

وقبل سرد ومناقشة أقوال المستشرقين حول هذا الموضوع، هناك أمر ملفت وهو:

كيف رضي اليهود على هذا التميز وهم الذين يرفعون راية السامية؟

إن اليهود رغم وجودهم كأقليات تنعم بحرية العقيدة والعبادة، وتتقلد المناصب الإدارية في الدولة الإسلامية، لم يثروا الحضارة بشيء كبير يذكر. فهم على مر القرون يعيشون عيشة تطفلية، تعتمد على الغير، ولم تظهر لهم شوكة إلا في العصر الحديث، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وقيام ما يسمى بدولة إسرائيل على أرض فلسطين، وعليه فإن الفترة التي ظهر فيها الاستشراق بعد الحروب الصليبية، وترعرعه في عصر النهضة الأوروبية، لم يكن لليهود وزن ينظر إليه في هذا المجال.

يقول الفيلسوف الفرنسي غوستوف لوبون في مقدمة الحضارة الأولى: "لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به

حضارة، واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في شيد المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ، وإذا ما صارت لليهود مدن في نهاية الأمر، فلما أدت إليه أحوال العيش بين جيران بلغوا درجة رفيعة من التطور، بيد أن اليهود كانوا غاية في العجز عن أن يقيموا بأنفسهم مدنهم ومعابدهم وقصورهم.. [28].

فاليهود لم يكن لهم ذلك التأثير في مجريات الأمور، ولم يسجل التاريخ أنهم حملوا مشعل الحضارة مرة من المرات، لذلك لم يكن يقام لهم وزن في هذا المضمار.

مع ذلك فإن النصرانية هي امتداد لليهودية، حتى أن النصارى ضموا أناجيلهم إلى التوراة وطبعوها مع بعض، تحت اسم الكتاب المقدس، وتسمى التوراة بالعهد القديم والإنجيل بالعهد الجديد، حيث لا يحتوي الإنجيل على أية تشريعات وعليه فالعدو الأوحد لهما يبقى الإسلام ولغته وحضارته وامتداده وصموده ومنافحته، وقدرته على التحمل والتكيف.

لقد تطورت فكرة التفوق العرقي لدى الغرب وتعددت أشكالها، وكلما سقط القناع عن شكل من أشكالها، لبست ثوبا آخر، ولو لم يكن على مقاسها، وكان الكونت جوبينو هو أول من ميز الجنس الآري على الجنس السامي بصفة عامة، ثم جاء المستشرق كارل هينرش بيكر، وقارن بين الفن عند الساميين والفن عند الآريين وذكر أن الفنون السامية تظهر فيها المصغرات المتكررة التي لا تجمعها وحدة تركيبية، أما الفنون الآرية فإنها تتميز بالتركيب القائم على وحدة الموضوع[29].

ولا يعدو كلام بيكر كونه مجموعة من الادعاءات التي ليس بينها وبين الواقع صلة.

إن عصر (الانحطاط) الذي مرت به الأمة الإسلامية، جعل الأوروبيين يتطاولون على الحقائق ويفسرونها وفق أهوائهم ومصالحهم، وإن كانت هذه التفسيرات لا يقرها العقل الآري نفسه.

وقد ظهرت هذه المسألة بجلاء عند مناقشتهم للفلسفة الإسلامية، وكيف أن كتب ابن رشد[30] وشروحه لمقالات أرسطو، سيطرت على الحياة الفكرية في أوروبا زمنا طويلا.

وقد استند رينان وكوزان، وجوتييه إلى الدراسات اللغوية ليخرجوا منها إلى تقسيم الشعوب إلى سامية وآرية، وإفراد خصائص ثابتة لكل من الجنسين. وذهب رينان إلى أن الجنس السامي إذا قوبل بالجنس الهندي — الأوروبي يعتبر حقا تركيبا أدنى للطبيعة الإنسانية، فالروح السامية تمتاز بالوحدة والبساطة، أما الروح الآرية فإنها تمتاز بالكثرة والتعقيد، والساميون يعتنقون التوحيد المطلق الذي يتمشى مع فطرتهم الساذجة[31].

لقد أسرف رينان في ادعائه هذه المميزات للعقل السامي، وخالف بذلك ما عرفه الناس من قبله ومن بعده، بل خالف ما يقتضيه العقل، والعلم الصحيح، وما يدعو إليه العدل والإنصاف، وهنا أستعير عبارات الدكتور إسرائيل ولفنسون في رده على رينان إذ يقول:

"والذي حمله على هذا الإسراف هو بغضه الشديد للشرقيين وتعصبه الفاضح لعنصره وقوميته اللذين دفعاه إلى مخالفة العدل والخروج عن مقتضى الإنصاف. يرى رينان من صفات الساميين الضعف والفشل في كل شيء، ويتخذ عقيدة التوحيد دليلا على ذلك إذ يقول: إن ظهور التوحيد عند بني إسرائيل في العصور القديمة دليل على أن خيالهم ضعيف، ذو لون واحد، بخلاف الأمم الوثنية فإن خيالها واسع قوي"[32].

ويكفي رينان مجانبة للصواب ثناؤه على الوثنية والعقل الوثني الذي عجز عن إدراك بديع السموات والأرض، وانحط يعبد جمادا أو حيوانا، أو احتار في تحديد ماهية معبوده كالنصارى.

لقد تجاوزت التطورات أقوال رينان وجوتييه ومن سار على دربهما، فالدعوة العنصرية بالتفوق بين خصائص الشعوب قد تداعت أمام البحث

العلمي الدقيق، وظهر أن طبيعة العقل البشري واحدة عند الشعوب وأن الحياة العقلية في كل شعب، هي مدّ وجزر.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في ظلام الجهل، كان العالم الإسلامي يحيا في نور العرفان، وعندما بدأت تنهض لجأت إلى الإسلام وأخذت عن مفكرية علمها بالتراث اليوناني القديم، أخذت تترجم عن اللغة العربية إلى لغتها اللاتينية، وسرعان ما تألفت بها مدارس تتشيع لابن سينا حينا ولابن رشد أو غيره أحيانا[33].

ورحم الله العلامة المسلم عبد الرحمن بن خلدون[34] الذي أوضح أن نضج الحياة العقلية أو اضمحلالها مرجعه إلى الظروف السياسية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي يحيا فيها الشعب، وليس مرده إلى طبيعة العقل عند الشعوب[35].

1 ــ تفوق العقل الآري عن العقل السامي عند أرنست رينان:

يقول رينان: "وليس العرق السامي هو من ينبغي لنا أن نطالبه بدروس في الفلسفة، ومن غرائب النصيب أن لا ينتج هذا العرق ــ الذي استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سماة القوة ــ أقل ما يكون من بواكير خاصة به في حقول الفلسفة، ولم تكن الفلسفة لدى الساميين غير استعارة خارجية صرفه، خالية من كبير خصيب، غير اقتداء بالفلسفة اليونانية... وهل يجدر تفضيل دراسة أرسطو وفق ترجمات ممقوتة، على دراسته في النصوص الأصيلة ؟ وهل يناسب تفضيل معرفة أفلاطون وفق شروح (تيمه) الرديئة، أو وفق شواهد مبتذلة، على دراسته في مجوعة آثاره ؟ إن الشرق السامي، والقرون الوسطى مدينان لليونان بكل ما عندهما من الفلسفة ضبطا[36].

على نفس المنهج والطريقة سار المستشرق الهولندي دي بور في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام حيث يقول: "لم تكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات بالفلسفة... وكان هذا التفكير السامي يقوم على

نظرات في شؤون الطبيعة متفرقة لا رباط بينها، ويقوم بوجه خاص على النظر في شؤون حياة الإنسان وفي مصيره. وإذا عرض للعقل السامي ما يعجز عن إدراكه، لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة الله، التي لا يعجزها شيء، والتي لا ندرك مداها ولا أسرارها"[37].

إن النظرة المتحيزة والطريقة المتعسفة التي يصدر عنها ويعتمدها رينان ودي بور ومن شايعهما تكشف عن الخلفيات التي كانت تحركهم والإطار العام الذي كانوا يفكرون داخله، وهو التأكيد على غربية التفكير الصحيح، وبعبارة أخرى، رغبتهم في تقوية وتعزيز إطار المركزية الغربية، وممارسة عدوان خطير على الثقافات اللاغربية، بتقزيمها، وتفتيت أواصرها وقتل الحياة في سياقها، وهذا تحامل ثقافي يحمل في ثناياه خلفيات استعمارية، ومشاعر استعلائية بعيدة عن الإنصاف والموضوعية، وسنرى كيف أن المقدمات التي انطلقوا منها، والرؤى الفرضية التي أسسوا بنيانهم عليها لا تعدو كونها محض أطياف وافتراءات باطلة.

الهوامش:

([2]) سورة النحل آية: 4.

([3]) سورة يوسف آية: 76.

([4]) سورة آل عمران آية: 140.

([5]) سورة الأعراف آية: 74.

([6]) سورة يوسف آية: 109.

([7]) سورة آل عمران آية: 128.

([8]) أفلاطون Plato فيلسوف يوناني ولد حوالي سنة 430 ق م في أثينا موطن أسرته. هجر أثينا إلى صقلية بعد وفاة أستاذه سقراط (انظر جمهورية أفلاطون ص: 9 نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد ــ دار المعارف ــ مصر ط3 - 1969).

([9]) منتسكيو Montesquieu Chares (1689م ــ 1755م) كاتب وفيلسوف سياسي فرنسي، أشهر آثاره "روح القوانين" Lespri des Lois.

- Americana page: 19/410. International Edition - Encyclopedia(U.S.A) - Grolier incorporation 1986

([10]) كـوزان فيكـتور Coussin Victor (1792م ـ 1867م) فيلسوف فرنسي، يعتبر أشهر المفكرين الفرنسيين في عصره. (المصدر السابق 121/8).

([11]) ريـنان أرنسـت Ernest Renan (1823م ـ 1892م) مؤرخ وفيلسوف فرنسي، أشهر آثاره "حياة المسيح"

(Vie de Jesus). Encyclopedia – Americana 23/402).

([12]) راسـل اللـورد برتـراند Russell Lord Bertnard (1872م 1970م) رياضي وفيلسوف أنكليزي من آثاره "تحليل المادة".

(Grolier Encyclopedia 17/150. The Grolier society publishers New York – Toronto. 1958.

([13]) انظر الاستشراق دراسة تحليلية تقويمية ـ د ـ محمد عبد الله الشرقاوي ص 178، دار الفكـر العربي القاهرة ـ نقلا عن الجمهورية لأفلاطون، ص: 362 /3 من نشرة د. فؤاد زكريا، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

([14]) انظر أسس الفلسفة د. كمال الطويل ـ ص 27 مكتبة النهضة المصرية ط3، 1958

([15]) Edward de Bono "Parallel thinking" p: 7 (Printed in england by Glays ltd 1994.

([16]) وولـتر سـنيس ـ تاريخ الفسفة اليونانية ص: 25، 26. ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1984.

([17]) ابن رشد ـ فصل المقال، ص: 33 الطبعة الكاثوليكية والمطبعة الجمالية، مصر ط2 ـ 1910.

([18]) ناصـر الديـن دينية محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ترجمة د. عبد الحليم محمود ص: 380 مكتبة نهضة مصر القاهرة، ط2 1958م.

([19]) انظر مقدمة الحضارة الأولى، غوستوف لوبون ص: 89، ترجمة محمد صادق رستم ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة 1341هـ.

([20]) الحـركة الصـليبية د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص: 36/1 مكتبة الأنجلو المصرية 1982 وكذلك انظر الإسلام والعرب روم لاندو ص: 123.

([21]) الإسـلام والعـرب روم لانـدو ترجمة منير البعلبكي ص: 124 دار العلم للملايين بيروت ـ ط1 1962. وانظر نص كلمة بابا روما (أوربا نوس الثاني) 1035 ـ 1099 التـي دعـا فـيها المسيحيين إلى تحويل أسلحتهم التي كانوا يتقاتلون بها، ضد الإسلام والمسـلمين، ولاكتسـاب أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها العديمة الإحصاء (تاريخ الحـروب الصليبية مكسيموس مونروند تعريب: كيريو كيريو مكسيموس مظلوم ص: 13 أورشليم 1865.

([22]) تـاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور ـ ترجمة أبو ريدة ص: 11 ط 3 لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1954.

([23]) تاريخ الفلسفة في الإسلام ـ دي بور، ص: 15.

([24]) الفلسفة عند اليوناني ـ د. أميرة حلمي، ص: 18 نقلا عن J-Burnet:

.Early Greek Philosophy (introduction p: 1-30) London 1949

([25]) لقد شاهد اليهود هيكلهم في القدس يدمر تماما في عام 581 ق م، ومع الهيكل ضاعت النسخ الأصلية للتوراة، وما هو موجود الآن بين أيدينا من العهد القديم (التوراة) هو من عمل الكتبة الذين حاولوا استرجاع ما فقد فاشتغلوا على نُسَخ عملوا منها نسخا أخرى، ومن هنا بدأت التحريفات تدخله (انظر نظرة عن قرب في المسيحية، بربارا براون ــ ترجمة مناف حسين ــ ص: 58 شركة التوحيد للنشر ــ إيران).

([26]) لذا ذكر سفر التكوين كنعان من غير أبناء سام، في حين أن البحث الحديث يثبت أن الكنعانية فرع من أفرع اللغات السامية. وذكر سفر التكوين عيلام من أبناء سام، وأثبت البحث الحديث أن اللغة العيلامية ليست من اللغات السامية. (انظر علم اللغة العربية ــ د. محمود فهمي حجازي ص: 133، دار غريب للطباعة والنشر ولتوزيع).

([27]) انظر: جذور الفكر الصهيوني ــ داود عبد العفو سنقرط ص: 26، دار الفرقان ــ الأردن ــ عمان ط2 1408هـ / 1987.

([28]) مقدمة الحضارة الأولى د. غوستوف لوبون ص: 15 ترجمة محمد صادق رستم المطبعة السفلية القاهرة 1341هـ.

([29]) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ــ د. محمد علي أبو ريان ص: 10 ــ 11، دار المعرفة الجامعية ــ الإسكندرية 1986.

([30]) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد أبو الوليد القرطبي حفيد العلامة ابن رشد الفقيه. عالم بالفقه والطب وعلم الكلام والفلسفة. من تآليفه: كتاب المقدمة في الفقه ــ الكليات في الطب ــ شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ــ جوامع كتب أرسطوطاليس في الطبيعيات والإلهيات وغيرها، مات بمراكش في داره محبوسا سنة 595 (عن سيرة ابن رشد لابن أبي أصيبعة). انظر: ابن رشد والرشدية ص: 551

([31]) تاريخ الفكر الفلسفي ص: 10 ــ 11..

([32]) تاريخ اللغات السامية ــ د. إسرائيل ولفنسون، ص: 13 ط1 مطبعة الاعتماد ــ مصر 1348هـ / 1929م.

([33]) انظر أسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص: 425.

([34]) هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون ــ ولد بتونس سنة 732هـ / 1332م. رحل إلى الأندلس، واشتغل بالسياسة حيث تولى الحجابة لأمير بجاية، ثم تفرغ للدرس والتعليم. توفي سنة 808هـ / 1406م. انظر ابن خلدون مؤسسة علم الاجتماعي للدكتور علي عبد الواحد وافي، ص: 19 وما بعدها مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

([35]) المقدمة لابن خلدون ص: 411 ــ 412.

([36]) ابن رشد والرشدية ــ أرنست رينان ص: 14. ترجمة: عادل زعيتر ــ دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1957.

([37]) تاريخ الفلسفة في الإسلام ــ دي بور ــ ترجمة د. أبو ريدة ص: 11.